الفصل الخامس

نماذج من مقالات
العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلى نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة (العروة الوثقى) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقتطفات تيسيرًا للتعريف بموضوعاتها وملابساتها.

الاستعمار فى مصر

فى العدد الأول الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ (٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان (مصر) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية فى وادى النيل، ووصفت البؤس الذى عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت:

«تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها إلى أراضى البلاد الغربية وتوارد إليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى فى مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين، وكل وافد إليها يجد أهلا خيرًا من أهله وسكنًا خيرًا من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى كان الداخل إليها يخيل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن.

«وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت فى كل أحوالها نوع ما عليه

الممالك الأوروبية العظيمة، وكأن المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكمًا ربما لم يكن بعيدًا من الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمرًا مقررًا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر. غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته، فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبى وخار الأفين[1]. فنقرب البعيد وبعد القريب، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا فى حواشى طوامير[2] الأوهام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«الحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف، ففتحت للدسائس أبواب. وأنساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن.

«قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت فى اعادة شأنها الأول إلى رأى قويم وعزم ثابت ووازع قوى تدين لسطوته النفوس وإن من ذوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد إليه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة.

«أشفقت دولة الإنكليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن، فرأت أن إعادة الأمن وتثبيت الراحة فى مصر من فرائض ذمتها، فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والإبعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه، وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد إلا مسه ضرمه[3] ما خلا أشخاصًا قلائل، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لإشرافه على الخطر من وجه آخر ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد.

«أليست المالية هى مرمى أنظار دول أوروبا وما وضع نظام فى البلاد

---

(١) أفن أفنا: ضعف رأيه فهو أفين ومأفون.

(٢) الطومار: الصحيفة وجمعها طوامير.

(٣) الضرم: اللهب.

ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية، اليوم رزئت بالنقص فى الإيراد وحملت من تعويضات متالف الحرب[١] أربعة ملايين من الجنيهات ورميت بنفقات جيش الحلول[٢] وحرب السودان ومصاريف أخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة.

«عقد العزم على إلغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجاراة محمد على وإبراهيم اللذين دوخا كثيرًا من الأقطار بجنود مصرية.

«وأسفا على حالة الأهالى بعد هذا، حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومة وما منهم أحد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم إلا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة، ألم يحس هؤلاء ضر الفقر ألم يعضهم ناب الجوع ألم يهتك مستورهم؟ ألم يضق ذرعهم ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة عراة من أكسية المسرة؟ إن لم يكن كل هذا فقد كان جله وإن صدى أنينهم يتلى فى صفحات الجرائد الوطنية العربية والإفرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون حتى لا يجد وطنى فى البلاد من المهن إلا ما لا يليق بالإنكليزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية.

«اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكموا

(١) هى التعويضات التى ألزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى أنها مقابل الخسائر والأضرار التى لحقت بالجاليات الأجنبية فى حوادث سنة ١٨٨٢ وخاصة مذبحة الإسكندرية فى ١٠ يونيه سنة ١٨٨٢ وضرب الإسكندرية بقنابل الأسطول البريطانى فى «يوليه» من ذلك العام. ومع أن المسئول عن هذه الخسائر هو الحكومة البريطانية لأنها هى التى أحدثتها. ووقعت فيها. فإن مصر قد احتملت عواقبها وتعويضاتها الجسيمة. وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه.

(٢) جيش الاحتلال.

أهواءهم فى أداء وظائفهم فخبطوا وخلطوا، فعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمراتٍ كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق عزيزِ المثال بعث عليهم عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شيعًا وأذيقَ بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

«غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية فى الإدارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة، فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة وسرى التهاون إلى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وكثر قطع الطرق فى كل ناحية وارتفعت الأصوات بالشكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية، فوقفت حركة الأعمال العمومية، وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم وإشفاقهم من الضياع على رءوس أموالهم وإن أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين إلى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالها التيفوس وإلى ما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التى ألفوها، فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المسالك ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلاً، ففسدت الزراعة وانتقصت ثمراتها وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الأحوال إلى حد ما كان يسمع إلا فى القصص وروايات القدماء. ومطالب الحكومة فى ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الأغذاذ فى اقتضائها، فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدى ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة إلا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبًا وسلبًا، باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد إلى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات إلا قليلا منهم الله يعلمهم.

«وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وإن ضعفت واتباع بواطل التهم وإن بعدت أو استحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه، فلا ترى مارًّا بطريق إلا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطي يقوده إلى السجن أو يقتضى منه فدا، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا؟.

«هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى، هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الألوان بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة، هذه طلائع الإصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله، أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقًا وعناءً وتمنيهم بالإنقاذ منه فيحنون إليه ويودون لو رجعوا إليه ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها.

«أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت بلاده من نحو عشرين شهرًا، كانت مقدمة لإصلاحها وتنظيم شئونها، نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها وإقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة، أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فإنهم إن هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون.

«فإن لم يكن هذا فليكن تمام الإصلاح الذى لا يمثله الخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قياس الإصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب (من الممالك الهندية) فإن الدولة التى تولت إصلاح الشئون المصرية فى هذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل إلى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى، فلينتظر إخواننا المصريون فإنا معهم من المنتظرين».

انجلترا والمسألة المصرية

وفى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ كتبت مقالة عن التواء السياسة البريطانية، ختمتها بأن الحل الوحيد للمسألة المصرية لا يكون إلا على أيدى أهلها، قالت:

«إن المسألة المصرية صبغت فى إنكلترا عدة صبغات من يوم نشأتها، وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فى الدن، حتى إذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد وهى فى انتقالاتها هذه لا تزداد إلا أشكالا ولا تزيد إنكلترا فى إنهائها إلا ارتباكا.

«كان يود مستر (غلادستون)[1] أن ينهج فى سياسته منهج سلفائه من الإنجليز يحبو إلى مقصده بالأناة والتؤدة ويلتوى فى مسيره إلى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه الحكمة ولا يسوغه الحذق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال (الطريق بين الرمال) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهد (بيكونسفيلد) من أنه لا يميل إلى الفتوحات وهمه البعد بإنكلترا عن المداخلات فى الأمور الأجنبية بالقوة الحربية، إلا أن الحوادث المصرية ألجأته إلى العدول عن مشربه والتطور بغير طوره، فتضاربت آراؤه وتردد فى أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه فى السياسة وتوعر السبل على حكومته فى بلوغ ما تريد وحدث النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد، وهو الآن فى حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته فى قلوب أحزابه، وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى فى إسقاطه من مكانته السياسية وإهباطه من كرسى الوزارة.

«الذى أباح لمستر (غلادستون) أن يركب غير طريقه ويتداخل فى مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد إلى إقرار الراحة وتخليصها من خلل الفوضى، ومن إنكلترا أن تتولى إغاثتها مما وقعت فيه فمد يده لوضع

---

(١) رئيس الوزراء البريطانية الذى وقع الاحتلال فى عهدها.

قواعد العدالة وتخليص الحكومة من الضعف وإعادة الأمن إلى البلاد، وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى إسكندرية والحلول فى ثكن القاهرة، فيكون قد كسب أجرًا أو نال ملكًا جديدًا أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة، ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية.

«تتابعت الفتن وعلا لياقا[1] حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب، ومع هذا لم تؤيد الحكومة التى انتصر لها ولم يكف محمد أحمد (المهدى) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دفنة بهذه الصدمات المتتالية وأجمعت الجرائد على أنه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها إلى قبيلته ويهاجم الإنكليز مرة ثالثة.

«فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداولات فى المسائل المصرية، فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه فى التعبير عن أفكار الوزارة، وفهم من بعض خطاباته أن فى نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن تحل فى شرقى السودان وأن تتولى إدارة الحكومة المصرية، فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها فى هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجه جلى، ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضيع فى المسألة المصرية، وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمراضاة الأيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته، وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شيء منها، ومن هذا غلب على الظن أنه سيحصل انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون فى خطر.

«فإذا انقلبت الوزارة الإنجليزية وخلفتها أخرى من أى حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة؟ أقبل الصيف وصعب

(١) اللياق: شعلة النار.

على عساكر الإنجليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر، ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر والخرطوم، فإن طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التلغراف انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجترءوا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر، فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد (المهدى) ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول، ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الإنكليزية، والبلاد المجاورة للخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم أثنا عشر أوروبيا وستون ضابطا مصريا نجوا من عساكر (هكس)[1]، ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف مستشار خارجية إنكلترا أن المواصلة بين شندى والخرطوم منقطعة ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر (مارس سنة ١٨٨٤) فإذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الإنكليزية فلا نظنه ألا يصدع جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية فى مصر (وليكن كذلك).

«ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياع مصالحها فى الأقطار المصرية خصوصًا بعض الدول التى كانت تسابق إنكلترا فى وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الإنكليزى الذى ليست له حدود معروفة ولا غايات معلومة، وإلى هذا تشير جريدة (الطان) الفرنساوية الوزارية حيث تقول: إن إنكلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدى أوروبا وتنوه به جريدة (سان بطرسبورج) حيث تقول إن روسيا ليس فى عزمها أن تفتتح بعمل فى مصر فإن انكليزا اعترفت فى جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى شيء منها إلا باتفاق أوروبا.

«هذا إذا تمكنت إنكلترا أن تأخذ على نفسها إطفاء الفتن وإجهاد الثورات

---

(١) الجنرال هكس قائد إنجليزى كان يقود جيشًا من المصريين هزم فى موقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ أمام قوات المهدى.

واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها، ففي نهايته تطالب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها، فإن عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان وهي بين ظفر وانهزام ولا تتجاوز فى حركاتها العسكرية شواطىء البحر فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة إنكلترا، وإنا نرى وسيحكم الزمان لنا إن شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين وضبط البلاد المصرية وإخماد نيران الفتنة فيها لا يتم إلا على أيدى أهلها. ويفعل الله ما يشاء».

عبث الإنجليز بالأمن فى مصر
وقالت أيضا فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤

«إنا لله وإنا إليه راجعون لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ورد تلغراف من القاهرة إلى جريدة (استاندر) يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الإنكليزية) إلى اطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنايات الخفيفة، وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين، لهذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزنًا»[١].

---

(١) فى مارس سنة ١٨٨٤ استقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية فى وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المستر كليفورد لويد Clifford Llooyd وكيلًا لوزارة الداخلية وتدخله المستمر فى شئون الوزارة، فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية، وظل كليفورد لويد يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها، ومن أمثلة تدخله أنه فى شهر مارس سنة ١٨٨٤ أصدر أمره بالإفراج عن عدد كبير من السجناء فى السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحكمة وكثير منهم من كبار الأشقياء وتعللت الوزارة بأن السجون ضاقت بالمسجونين، وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل. وإلى هذه الواقعة أشارت جريدة العروة الوثقى فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ السالف الذكر.

ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها

وفى عدد ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤، نشرت مقالة عنوانها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)، أوضحت فيها أن علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء، فمن قائل إن الجرائد علاج ناجع فى إصلاح شئونها، وأظهرت الشك فى كفاية الصحف لهذه المهمة، وكيف أن كثيرًا من المتعلمين اتجهوا إلى محاكاة الغربيين فى أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية، وانتهت المقالة إلى أن الواجب على الأمم الشرقية أن تتبع أصول دينها، ففى اتباعها ما يعيد إليها المجد والمنعة ويرقى بأخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها، قالت:

«أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورًا، ثم انشق عنها بماء العدم، فإذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنيان. عليها سياج من شدة البأس، ويحيطها سور من منعة الهمم، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل، نمت فيها افنان العزة، بعد ما نبتت أصولها، ورسخت جذورها، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى إليها، ونفذت منها الشوكة، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة، فاستغلت آدابها على الآداب، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة إلا فى انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

«وبعد هذا كله وهى بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الأهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعًا، وانحل ما كان منعقدًا، وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه، لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدى الملتحمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى

obeikandi.com

توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر إليه صحوًا، وذبول يظنه المغرور زهوًا، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها، وحدثت فيهم قناعة البهم، والرضا بكل حال، ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفًا، أو يعيد لها مجدًا، عده هوسًا وهذيانًا، أصيب به من ضعف فى المزاج، أو خلل فى البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالاً من اليأس، فتغل يداه عن العمل، وتقف قدماه عن السعى، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقيمًا على ما أورثوه لأعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدًّا يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

«نعم رأيت كثيرًا من الأمم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى.

واأسفا ما أصعب الداء، وما أعز الدواء، وما أقل العارفين بطرق العلاج!.

«كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهى لم تفترق إلا لأن كلًّا عكف على شأنه؟ أستغفر الله، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه، نعم ربما التفت إلى كل ما هو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدرى من أى وجه يحصلها، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زمانًا غير قصير إلى ما ليس من معاليها؟ هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم؟ وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه، خصوصًا بعدما استدبر المقصد، وفى كل خطوة يظن أنه

على مقربة من الحظوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه، المبتهج بأحلامه، وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر؟.

«هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها، وتتناءى أطرافها، وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة، وتوحد آراءها المتخالفة، بعد ما تراسم جهل وران غين، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد، وكل سهل وعر؟ أيم الله إنه لشىء عسير يعيا فى علاجه النطاسى، ويحار فيه الحكيم البصير، هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء. وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه؟ إن كان المرض فى أمة فكيف الوصول إلى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصًا بعينه أن يختار له نوعًا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ وإلا فإن كثيرًا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر، ثم لا تظهر إلا فى طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

«كلا، إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة، وعوارض حياته محصورة، فكيف بمن يريد مداواة علة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها ومجدها إليها، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين، وكما أن المتطبب القاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة، لولا مساعدة الاتفاق والصدفة، بل ربما يفضى بالمريض إلى الموت – كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها، ووجوه العلة فيها وأنواعها، وما يكتنف ذلك من العادات، وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض، ومكانتها الأولى من الرفعة، ودرجتها الحالية من الضعة، وتدرجها فيما بين المنزلتين. فإن أخطأ طالب إصلاحها فى اكتناه شىء مما ذكرنا تحول الدواء داء، والوجود فناء، فمن له حظ من الكمال الإنسانى، ولم يطمس من قلبه موضع

الإلهام الإلهى، لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور فى أداء هذا الأمر العظيم علمًا أو عملًا. نعم يكون ذلك من محبى الفخفخة الباطلة، وطلاب العيش فى ظل وظائف ليسوا من حقوقها فى شىء.

«ظن القوم فى هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعالج بنشر الجرائد، وأنها تكفل إنهاض الهمم، وتنبيه الأفكار، وتقويم الأخلاق، كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض؟ فبعدما عم الذهول، واستولت الدهشة على العقول، وقل القارئون والكاتبون. لا نجد لها قارئًا، ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه، بضيق فى التصور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافًا، على أن الهمة إذا كانت فى درك الهبوط، فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها، مع قصر المدة، وتدفق سيول الحوادث إن هذا وحقك عزيز.

«ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة فى أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلادها إلى ما دون رتبتها بدرجات لا تحصر، ورضاها بالدون من العيش، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها، بل لمن كان خاضعا لسيادتها، راضخا لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة فى كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا، حتى تعم المعارف جميع الأفراد فى زمن قريب، ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق، واتحدت الكلمة، واجتمعت القوة. وما أبعد ما يظنون؟ فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر، يحمل الأمة على ما تكره أزمانًا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبًا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة، وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغنى؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

«فإن قالوا: يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات، وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟...

على أنا لو فرضنا مسألة الدهر، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد، والاستزادة منها شيئًا فشيئًا، فهل يصح الحكم بأن هذا التدريج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بإرشاد الباقى من أبناء أمته؟.

واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها!؟ وكيف بذرت بذورها؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت؟ وبأى ماء سقيت، وبأى تربة غذيت؟ ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منها فى مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك، فإنما يكون ظاهرًا من القول لا بناء على الحقيقة، فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقوم من أفكارهم، ويعدل من أخلاقهم، ويهديهم طرق الرشاد فى إفادة إخوانهم.

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم – وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس إليهم من الأوهام المألوفة فيها، وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا، وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم – يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فسادًا.

«ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم، ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها، وما مرنت عليه من عاداتها، فيستعملونه على غير وضعه، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه، وغفلتهم عن آتيه، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس، والحياة لكل روح، فيرومون من الصغير مالا يرام إلا من الكبير،

Obeikandl.com

وبالعكس، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه، ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد؟ أو يزيدها على ما بها أضعافا؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها وإنما هم لها نقلة وحملة.

«فهؤلاء الصادقون إلا من وفق الله منهم بعناية الإلهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه، فيسرع إليه المرض، وينتهى به إلى التلف، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة، يشتتون بقية الجمع، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط، فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها، وما قصدوا إلا خيرًا إن كانوا مخلصين، ويوسعون بذلك الخصاص[1] حتى تعود أبوابًا، ويباعدون ما بين الضفاف، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء، وعنوان المصلحين، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

«شيد العثمانيون والمصريون عددًا من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب، وكل ما يسمونه تمدنًا، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة، وسير الاجتماع الإنسانى، هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم إليه الأجانب بتصرفاتهم؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الأفكار حدًا يفل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية، فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت فى سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم؟.

---

(١) الخصاص: الخلل أو الخرق فى الباب.

obeikandl.com

«نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء، لا تعرف غايتها، ولا تعلم بدايتها، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمات أخرى على حسب ما يختارون، ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم، وعرضوها معرض المباهاة، فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم، وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة، وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها.

«علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم، واحتقار من لم يكن على مثالهم، شؤما على أبناء أمتهم، يذلونهم ويحقرون أمرهم، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت، وإن بقى فى بعض رجال الأمة بقية الشمم، أو نزوع إلى معالى الهمم، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه، حتى يمحى أثر الشهامة، وتخمد حرارة الغيرة، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم.

«أقول ولا أخشى لوماً: لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الإنكليز – لما بارحوها أبد الآبدين،

فإن نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم، فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم، ويحفظون بها استقلالهم. ولهذا لو طرق الأجانب أرضًا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم، كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم.

* * *

«فما الحيلة وما الوسيلة، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها، والوقت ضيق والخطب شديد؟ أى جهورى من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات؟ أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة، وتحرك الأفكار الخامدة؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب، بعيدة المناكب، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى، الرءوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء، ولا للنفوس رغبات، وللأهواء تحكم، وللوساوس سلطان.

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم؟.

لا أطيل عليك بحثًا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل: أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة، وضعفت بعد القوة، واسترقت بعد السيادة، وخيمت بعد المنعة، وتطلب أسباب نهوضها الأول، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل، فقد يكون ما جمع كلمتها، وأنهض همم آحادها، ولحم ما بين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم، وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها، إنما هو دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل

لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الإجتماعات البشرية. وحافظ وجودها، وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

«فإن كانت هذه شرعتها، ولها وردت، وعنها صدرت. فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًا، وحدوث بدع ليست منها فى شىء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما أتى لأجله، وما أعدته الحكمة الإلهية له، حتى لم يبق منه إلا أسماء تذكر، وعبارات تقرأ. فتكون هذه المحدثات حجابًا بين الأمة وبين الحق الذى نشعر بندائه أحيانًا بين جوانحها.

فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بإمكان على ما كان فى بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة إليه، وفى زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الأرواح لأقرب وقت، فإذا قاموا لشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينها، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنسانى..

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا.

«هل تعجب أيها القارئ من قولى إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشىء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية!؟ إن عجبت فإن عجبى من عجبك أشد!!

هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية

والشتات، واتيان الدنايا والمنكرات، حتى إذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها، ونور عقولها، وقوم اخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم، وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف، وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها، ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة إقليدس، وهيئة بطليموس، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شيء من هذا، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها.

«وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك، وافتتاح الأقطار، وطلب السيادة على الأمصار، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم، وارتفاع النفوس عن الدنايا، وبعد الغايات، وعلو المقاصد هى التى هذبت أخلاقهم، وقومت أفكارهم، وكفتهم عن معطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها، ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها.»

تجريد مصر من قوتها الحربية

وفى نفس العدد قالت ما يأتى تحت عنوان (مقاصد إنكليزية فى مصر):

«فى كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة إنكلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فإن الإدارة المصرية وفروعها فى حاجة إلى إصلاح حقيقى ولن يقوم به إلا رجال الإنكليز.

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة إلى إظهار ما أكنته من السلطة على البلاد المصرية وضمها إلى ممالكها الشرقية، وما كان ذلك خافيًا على أحد وإن كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم.

«وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية إنما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم، ثم هى تموه فى تحسين ذلك بدعواها أن أهالى مصر يفرحون منه، مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ويلسون[1] إنما كان منشأها العزم على تقليل عدد العساكر وإقفال المدرسة العسكرية، فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج».

تخاذل الشرقيين والدعوة إلى الوحدة بينهم

وكتبت فى عدد ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ (١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٠١) تحت عنوان (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا) مقالة أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم وإغفالهم شئون إخوان لهم فى بلدان أخرى وعدم إكتراثهم لما يحل بهم ففقدوا التضامن بينهم ولم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والسياسة فى مختلف الأقطار، وبينت أن تفرق الكلمة فى الدول الإسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفًا لمطامع أعدائها، ودعت العلماء فى جميع الأقطار الإسلامية إلى توحيد كلمتهم وتوفيق الصلات بينهم لدرء الأخطار عن أوطانهم.

«إن للمسلمين سترة فى دينهم، وقوة فى إيمانهم، وثباتًا على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم ﷺ كفالة لسعادة الدارين. ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم، حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالمًا كان

(١) تقصد الوزارة المختلطة التى كان يرأسها نوبار سنة ١٨٧٨ وكان فيها وزيران أجنبيان. أحدهما إنجليزى وهو ريفرس ويلسن Revers Wilsod، والثانى فرنسى، وهو دى بلينيير De Blignieres وقد سمتها (العروة الوثقى) وزارة ويلسن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة. للتحقير من شأن رئيسها نوبار وتقصد بالثورة العسكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩ وأدت إلى إسقاطها.

أو جاهلًا أن واحدًا ممن وسم بسمة الإسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل إليه هذه الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الأضطراب، ودمه من الغليان، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب.

«المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتمدين فى الجنس ولا المختلفين فيه، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام، ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب، ولايباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه، وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الإسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان.

«المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الإيمان، وهو هاتف الحق الذى بقى له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوخستان كانوا يرون حركات الإنجليز فى أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على إخوانهم، والأفغانيون كانوا يشهدون تداخل الإنكليز فى بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتململون، وأن جنود الإنكليز تضرب فى الأراضى المصرية ذهابًا وإيابًا تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة فى نفوس إخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين احمرت

أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

«تمسك المسلمون بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها مما يقضى بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب، فخذ مجملاً عنه: إن الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كانت هى الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير مايعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها.

«نعم إن الإنسان إنسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس إلى مزايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شهود يحدث فكرًا، وكل فكر يكون له أثر فى داعية، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار، مادامت الأرواح فى الأجساد وكل قبيل هو للآخر عماد.

«إن للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجىء إليه الحاجات، من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافرهم على دفع المضار، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية، كالإحساس بالجوع والعطش والرى والشبع، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيًا. فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الأوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه أو ألجأته ضرورة إلى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات، وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الإنسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض،

إذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية إلى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلاً من أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعد فى الصور العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات إليه كما قدمنا.

«بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك السبب فى سكون المسلمين إلى ماهم فيه مع شدتهم فى دينهم، والعلة فى تباطؤهم عن نصرة إخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضًا هجرًا غير جميل، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لاتواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلاً عمن يبعد عنهم، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى. وهكذا، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم، ولا صلة تجمعهم إلا ما يكون بين افراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر، أما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم، بل لا أنساب بينهم، وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه.

«كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين، أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق؟

«هذا التدابر والتقاطع وإرسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد. إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام، وهذا النوع من الاحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته. كانت الملكة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض

ما أضعف الالتئام بين أجزائه. فتداعت للتناثر والانحلال. وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم.

«بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملةالإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم، كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام. خلافة عباسية فى بغداد، وفاطمية فى مصر والمغرب، وأموية فى أطراف الأندلس، تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة إلى وظيفة الملك، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طِلاب الملك والسلطان يدأبون إليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة.

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلًا وإذلالًا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعًا، وانفرد كل بشأنه وانصرف إلى مايليه، فتبدد الجمع إلى آحاد، وافترق الناس فرقًا كل فرقة تتبع داعيًا إما إلى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة، وصار ما فى العقول منها صورًا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول من الزمان، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت، كما يكون على الأموات من الأقارب، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة، ولا دفع الغائلة.

«وكان من الواجب على العلماء قيامًا بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى

مشاجدهم- ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطًا لـروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قـوارع العدوان، والقيـام بحاجـات الأمة إذا عـرض حادث الخلل وتـطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلـك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع، فإن إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظـائف، فلو أبدع مبـدع أمكن بالتـواصل بـين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشـوها بـين العامـة، وليس بخاف عـلى المستبصرين ما يتبـع هذا من قـوة الأمة وعلو كلمتهـا واقتدارهـا على دفـع ما يغشاها من النوازل.

«إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وإن التفت إليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمـع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة إلى من يبعد عنهم، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، وإلى الله المصير».

الجيش المصرى بقيادة الإنجليز
والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ (١٨ رجب سنة ١٣٠١):

«دخل الإنكليز مصر فزعموا أن ما كان موجودا من الجند الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جندًا جديدًا فى عدد قليل، واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد أشهر أثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالإطراء عليه جرائدهم ولم تلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون إلى طرد الجند الجديد[1]. فهموا بذلك مرارا مع العزم على استبداله بآخر من أبناء الوطن، وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن همهم كتموا أمرهم زمنًا ثم عادوا للإشارة إليه تعللاً بما ينسبونه إلى بعض العساكر، وهو من دسائسهم، وآخر الأمر خفتت أصواتهم وأحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول.

«فى هذه الأيام رغبوا إلى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية

---

(١) تأييد لما ذكرته (العروة الوثقى) نقول: إن أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو إلغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزيل يرأسه ضباط من الإنجليز، وقد بادر الإنجليز منذ الساعة الأولى إلى الغاء الجيش الوطنى، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ - بإيعاز منهم مرسومًا بإلغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العرابية، وكان التعجيل بهذا الاجراء الخطير ذريعة لإنجلترا لتسويغ بقاء جنودها فى مصر بحجة المحافظة على النظام فيها. وعندما أوفدت إنجلترا اللورد دفرين سفيرها بالآستانة إلى مصر وعهدت إليه وضع تقرير عن الحالة فيها. رفع تقريره فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ إلى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب إلى أن مصر ليست فى حاجة إلى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها (تأمل!) وإن مهمة الجيش المصرى يجب أن تنحصر فى إقرار الأمن والنظام داخل البلاد، وأوحى بأن لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى، على أن يتولى قيادته قائد إنجليزى يعاونه لفيف من الضباط الإنجليز، وبذلك وضع دفرين فى تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت إنجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال.

وتحويره ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض أثقالها، فصرحوا فى لائحتهم المرسلة إلى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية[١].

«إن الإنكليز من ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصل فى مصر[٢] وألزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذاك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا من المحال تنقيص شىء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية إذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين. واليوم عطفوا على المصريين (عطفة الأب الرحيم) وبسطوا أيديهم إلى الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية، أليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج إلى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الغوائل التى لا تأمن طروقها حكومة من الحكومات، إن فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية كسرًا عظيمًا.

«للإنكليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند، وفى خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فإنهم يخالفونهم فيما يريدون ببلادهم، فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات، وألجئوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا إليه، وكان هذا التدبير سببًا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة، وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى المضى إلى مقاصدهم لإيجاد عنوان غير التملك يعنون به إقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنا طويلاً، ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصًا من الوعد الذى

---

(١) المؤتمر الذى تشير إليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت إنجلترا الدول فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤ إلى عقده للمفاوضة فى شئون مصر المالية والنظر فى تعديل قانون التصفية، وقد عقد بلندن فى يونيو سنة ١٨٨٤، ولم يكن عقده لصالح مصر، بل كان مظهرًا للحماية المقنعة التى اعتزمت فرضها عليها. لأن عقد مؤتمر للنظر فى شئون مصر المالية دون السياسة معناه إطلاق يد الإنجليز فى مصر على أن هذا المؤتمر قد انفض على غير جدوى إذ لم يتفق المؤتمرون على طريقة تسوية حالة مصر المالية.

(٢) يقصد على الراجح خلع الخديو إسماعيل.

وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على إبدال العنوان بما هو المطلوب لهم، ورأوا من أحسن الوسائل لدعوة الدول إليهم عرض المسألة المالية.

«ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية، فلابد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة إلى عساكرهم قائمة، هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين إلا أنها من الطرق المتعارفة عند الإنكليز، وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن شديدة، دمر[1] الإنكليز على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة إلى ممالك صغيرة، ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه، فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الإنكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب، وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب، بدءوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الإنكليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الإنكليزية فأقبل الإنكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الإنكليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم إلا أن يؤدى نفقتها، ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الإنكليز بذلك أولياء المتباغضين

---

(١) دمر عليه: دخل بدون إذن أو هجم هجوم الشر.

وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية عنها، ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين.

«ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الإنكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام فى القرض وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة. وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء، وبعد مضى زمان كانوا يومئون إلى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون إلى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الأمير عن الأداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا إلينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى أقمناها لكم ثم الأرض أرضكم نردها إليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غضروات[١] الأراضى وفيحائها، وفى أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعًا حصينة وحصونًا منيعة كما يفعلون ذلك فى تكن (أماكن إقامة العساكر) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية، وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابًا من الإسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون أقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الأولى ثم يذكون نار العداوة بين الحكام لتنتشب بينهم حروب فيتداخلون فى أمر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه، وهم فى جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها فى إيقاع الشقاق بين سائر الأهالى لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى إذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدى فلا يستطيع أحد حراكًا ساقوا الحاكم إلى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها

(١) الأرض الطيبة. ويقال هم فى غضراء من العيش أى فى خصب وخير.

من ماله، ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم إلى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم أرضًا أو يمنحهم امتيازًا فيحولون الملك من الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيه وفي الكل هم الرابحون، وهذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا، ما فاجئوا أحدًا بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهاليها ولا بما تطرف به أجفانهم.

«أولئك الإنكليز باقعة[١] العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية، فإن تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة في مصر أن يطلب منهم جندًا إنكليزيًا يكون خادمًا له وحافظًا لملكه، فإن لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولاً عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكمًا خلفًا لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا، هذا سر انقلاب الإنكليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم إلى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة.

«أما المؤتمر فالداعي إليه أن العدوان في هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان في الأحقاب الخالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكي والغبي، بل من أراد عدوانًا فلابد أن يحفه بمواكب من الأدلة وخفال[٢] من البراهين وهو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح، وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو في هذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة.

«يريد الإنكليز عقد المؤتمر ويرغبون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصري ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على أنفسهم عهدة الإنفاق على الإدارات المصرية مدة من الزمان لترخص لهم الدول

(١) الباقعة: الداهية.

(٢) الخفال: الجمع الكبير.

الإقامة فى وادى النيل إلى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وإدارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلاً بلاد أوروبا، فإذا حدث حادث حرب فى الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم، هذا سر شفقة الإنكليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية.

«هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتنقض على المصريين هل تمس بحفيفها جانب ألمانيا، كلا، فإن منافع ألمانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها، وليست دولة (أوستريا) بأقرب إلى المصائب المصرية من ألمانيا، على أن كلا من الدولتين ليس فى استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئاً من مصالحها، فإن مواقع الدولتين لا تساعدهما على الإضرار بدولة الإنكليز، أما إيطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقيا بمساعدة إنكلترا».

سوء الأحوال فى مصر

ونشرت فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال فى مصر ونذكر طرفاً مما يعانيه المواطنون نتيجة للسياسة الإنجليزية قالت:

كتب إلينا صديق فاضل من خلص المؤمنين بالقطر المصرى قال:

إن مأمورى الإنكليز الآخذين بزمام بعض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضوهم بطلب الحماية الإنكليزية، إلا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم إلا خيبة، لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغايات الإنكليز ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد إلا الشر كما لم ينلها من حلولهم إلا الضر خصوصاً وأن روح الحمية والغيرة الدينية والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت أنفتهم من تسلط

الإنكليز فى ديارهم، وقاوموا مطالبهم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة، وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الإنكليز فى رغبتهم، وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره، فإن وجد بينهم شخص يتخذ الهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى أفناد[1] ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به.

ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد إلى أن أناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من إجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يستلمونها إلا مثل ما لاقى من غيرهم فإن الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى، فكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه ظلم.

إلى أن قال الصديق الفاضل: أما الفلاحون فأحوالهم سيئة: ضيق وضنك وفقر وإعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد، الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة إلى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم، والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم، والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل فى المحصولات وفاء بضرورات المعيشة فضلاً عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس، ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب أغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية[2] على خراب بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه بأسرها وهذا يتفق عليه ببيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات.

أما أحوال المدن فليست بأسعد من أحوال الأرياف خصوصًا من تعديات الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى

---

(١) الأفناد: الطوائف.

(٢) يريد المحكمة المختلطة.

فيها على الوطني بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شىء وإن كان هو المعتدى، وإن سأل الوطنى أين خصمى فيقال له إنه يحاكم فى محل آخر مع أنه لم يذهب إلى مقام المحاكمة رأسًا واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد (هذا بعض آثار العدالة الإنكليزية).

وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الإنكليزى فى إدارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند أولى الأمر من المصريين.

أما الأمن فلم يبق له أثر وأما النظام فقد نقض بناؤه واقتلع أساسه واختزن الإنكليز نقاضه فى خزائن الآثار القديمة، فقويت عصابات اللصوص، وجاهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فإن جميعها يشتكى الملل والسآمة من رواية أخبار السوء كل يوم، إلا أن من غريب الوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية (نشرت) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم، واحدًا وأربعين رجلًا فإن خبر هذه الواقعة إن صح كان دليلًا على بلوغ الاختلال إلى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله إبدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شىء قدير.

رئيس وزراء مصر
يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م (٢٥ رجب سنة ١٣٠١هـ) النبأ الآتى:

«إلى اللورد غرانفيل[١] أن يرخص لنوبار باشا بالسفر إلى أوروبا مدة غيبة السير بارنتج[٢] فإن أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فإن اللورد غرانفيل يطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا، هذا كله والإنكليز

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ.

(٢) أفلين بارننج Evelin Barning المعتمد البريطانى فى مصر الذى صار اللورد كرومر.

لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم، وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف فى الإدارة أو التحكم فى أولياء الأمور، هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر إلا بإذن من غرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمرًا على الخديو باستيزار فلان وعزل فلان، فإن لم تكن هذه سيادة فما هى السيادة ؟».

وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية فى عدد ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ (١٠ شعبان سنة ١٣٠١) تحت عنوان «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشرقية وتدعوها إلى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت :

«أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى، وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه، بل يستلزمه، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها، وهما الميل إلى وحدة تجمع، والكلف بسيادة لا توضع، وإذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه (يثبت ويقيم) إلى أجل مسمى أودع فى ضآضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين، فأنشأه خلقا سويًا، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله.

«كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها، ويشتد به بناؤها، فلابد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض، إن التغلب فى الأمم كالتغذى فى الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو، ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك، وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها، إلا أن تكون متفقة فى تحصيل ما تحتاج إليه هيئتها، إذا أحسست من أمة ميلاً إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم - إذا تصفحنا تاريخ كل جنس

واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها، وجدنا هذه سنة الله فى الجمعيات البشرية، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم إلا عند لهوهم بما فى أيديهم، وقناعتهم بما تسنى لهم، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء، وما أهلك الله قبيلاً إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق، فأورثهم ذلاً طويلاً، وعذابًا وبيلاً، ثم فناء سرمديًا.

«الوفاق تواصل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم، وبما تفقده من ذلك، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به، وهذا الإحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته، ليجعل جزءًا من زمنه للبحث فيما يرجع إليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة، ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة، ثم لا يكون نظرًا عقيمًا حائرًا بين جدران المخيلة، دائرًا على أطراف الألسنة، بل يكون استبصارًا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر، والدرجة الأولى من الإعتبار والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منها، ولا تقف فيها تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة، بل يأخذ العقلاء منها سيلاً من التفكير، ويخترطون سيوفًا من الهمة، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونواد من المكنة، ويستخرجوا دفائن من الثروة، ويجمعوا ذلك للأمة، لصيانة حياتها إلى حد العمر اللائق بها، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده، وأن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون. ثم تتلوه سائر الأدوار، وأولها أقصرها وهو سن الطفولة، ويبدء الكمال فيما يليه، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة.

«إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمة إلى الحد الذى بيناه، رأيت فى

الدهماء منهم والخاصة همًا تعلو، وشيمًا تسمو، واحترامًا يقود، وعزمًا يسوق، كل يطلب السيادة والغلب، فتتلاقى هممهم، وتتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب، فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه، ويكون نزوهم على الأمم بعد الغلب الأول تدفقًا من الطبع لا يحتاج إلى فكر وروية إلا فى إعداد وسائل الفوز والظفر.

«هذان الأمران: الوفاق والغلب، عمادان قويان، وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية، وفرضان محتومان على من يستمسك بها، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، جاء فى قول صاحب الشرع أن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه إذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر، وجاء فى نهيه «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا» وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب.

«هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله، ونهاهم عن التفرق والتغابن، وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء، ونطق الكتاب الإلهى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا بإصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد فى وجوب الإصلاح وإن أدى إلى مقاتلة الباغى فقال ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله﴾ وإنما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى، ويصله جهنم وساءت مصيرًا.

«وفى أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة، وأخبر الصادق ﷺ أن «يد الله مع الجماعة» وكفى بالقدرة الإلهية عونًا إذا صح الاجتماع وصدقت الألفة، وقد

بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الإسلامية اسمى درجة فى الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفًا عن حكم الله وما فى علمه، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين. وعد جموده مروقًا من الدين، وانسلاخًا عن الإيمان. ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله ﷺ «لو دعيت إلى حلف الفضول لفعلت»، (حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبدالله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند أحد فضلًا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه). فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى إليه.

هذا إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين، بل بينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه.

«وأما السعى لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء الفروض منه، ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عددها – هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته.

«هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون إلى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف إجراؤه على قوة الولاية الشرعية، فإن لم يكن الوفاق والميل إلى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين؟ وأيسر شىء علينا إقامتها وعديدنا مئتا مليون أو يزيد؟ هل يتيسر لنا إذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن؟

«كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه، لو أدينا حقوقًا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهى كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا، وهل كنا نشيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا فى صياصيهم، وأيدينا على نواصيهم؟

إن لأبناء الأمة الإسلامية يقينًا بما جاء به شرعهم، لكن أليس علىَ صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين؟ ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق فى العمل؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الإيمان؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته؟

«لا. لا. إن المخلصين فى ايمانهم الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله الثابت فى قوله ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية، فأين المفر؟

«المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين، هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدى حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟

واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الإسلام.

«إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه فى أعداد ماضية، فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزماناً عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم، فسهوا وما غووا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة، كل يطلب عوناً وهو معه، ولكن لا يهتدى إليه، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفى تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم، فما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها عواكن القلوب، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية، فإن أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب، وما ضاقت به صدورهم من غاراتاالغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقى، ذهبت إلى أن الإستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدًّا يوشك أن يكون فعلاً. وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ويهيىء لهم فوزًا ونجاحًا بعون الله الذى ما خاب قاصده، وهو ربى إليه أدعو وإليه أنيب.»

الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت فى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾.

أوضحت فيها أن البلاد التى أصيبت فى كيانها واستقلالها كانت هى الظالمة

لنفسها إذ كانت تثق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين فى تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار، وأن القوة والعدل هما أساس الملك. فقالت:

«أهلك الله شعوبًا، وأباد قبائل، ودمر بلادًا، ولا يزال عدل الله يبدل قومًا بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين، فكم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء، وعين بحكمته لكل حادث سببًا، ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾. وليست أفعاله جزافًا، ولا يصدر عنه شيء عبثًا، أمر الله عباده بالسير فى الأرض ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف، فيطيعوا أوامره، ويقفوا عند حدود شرائعه، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

من كان له قلب يعقل وعين تبصر، وعقل يفقه، وتتبع حوادث العالم، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيال الماضية، واعتبر بما قص الله عليه فى كتابه المنزل يحكم حكمًا لا يخالفه ريب، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البلاء، وما مسها الضر فى شيء، إلا وكانت هى الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله، وانتهكت حرماته، ونبذت أوامره العادلة، وانحرفت عن شرائعه الحقة، وحرفت الكلم عن مواضعه، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات.

«كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر فى الهيئة الاجتماعية، ولهذا كان من رحمته بعباده تحديد الحدود، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فمن خالف الأوامر الإلهية فقد ظلم نفسه، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة.

«إن تأثير الفواعل الكونية فى أطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر، أما تأثير أحوال بنى الإنسان فى هيئة اجتماعهم، فيسهل الوقوف على سره لكل ذى إدراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء.

«ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببًا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة. وجعل التنازع والتغابن علة للضعف، وداعيًا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية، ومهيئًا لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم. فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصابًا بمرض القلب، وعمى البصيرة، أدرك سر أمر الله فى قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا﴾ وسر نهيه فى قوله ﴿ولا تفرقوا﴾ وقوله ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[1].

«إن الله تعالى جعل الركون إلى من لا يصح الركون إليه، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به، سببًا فى اختلال الأمن وفساد الحال، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شىء، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية، ولا تصل به رابطة صحيحة، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته، أو كتم سره، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته، ودفع المضار عنه، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله، وإن كان مليكًا ضاع ملكه، أو أميرًا بطل أمره، والحوادث شاهدة، وأحوال المغرورين ناطقة، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله ﴿لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ وقوله ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر﴾ وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين.

«لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه، وواجب يلزمه القيام به، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا، ويعد لها مآلاً صالحًا فى الآخرة، وهو إنسان له قلب واحد، لو جعل معظم همه فى شىء فاته سائر الأشياء، فلو توغل فى الشهوات، وبالغ فى الترف، وبطر فيما أنعم عليه، فقد أغفل فرائضه، وأضر بنفسه، وحرم من منافعه، وحل به من عقاب الله أشد الوبال، وخسر الدنيا والآخرة معا، وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره، واحترق

---

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم.

بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته، أو يواطنه فى مدينته..

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بمالا يعجم إلا على أذن صماء، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كمهاء[1]، وأن فيها قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾.. ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون.. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾.. ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

«ما أوتى الإنسان من العلم إلا قليـلا. لا يمكن الإنسان وحـده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها، أو يكشف مكامن مضاره فيتقنها، خلق الإنسان ضعيفًا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾ خلقنا محتاجين للعون مضـطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر.

«هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمته، وألقى إليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت إرادته، وهو الوازع فيه والواضع والرافع. لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج إلى المشورة والاستفادة من آراء العقلاء، وهو أشد افتقارًا إلى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره إلى التشاور على مقدار سعة سلطانه، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليمًا وإرشادًا فقال ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ وقال فيها امتدح به المؤمنين ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم؟ وأى بصيرة لا تهتدى إلى هذا المنهج القويم؟ ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾.

---

(١) الأكمه: من يفقد نور عينيه منذ ولادته. والأنثى كمهاء.

«إن وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة إلى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرضة لأطماع الطامعين، وأن الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه، وليستعبدوا أهله، ويستأثروا بمنافع أرضهم، وثمار كدهم، ويمنحوها أبناء جلدتهم. فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله، والحكام النائبين عنه فى إيالاته، وقواد جيشه، وعلى كل أرباب الرأى، ومن بهم قوام الملك، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان، ورفع نوازل الغارات الأجنبية. فلو فرطوا فى اعداد لوازم الدفاع، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم، ويقوى شوكتهم، بأى وجه كان، ومن أى نوع كان، فقد عرضوا ملكهم للهلاك، وألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار.

«هذا مما يفهمه الأبله والحكيم، ويصل إليه إدارك الجاهل والعليم. وهو سر الإفصاح والإبهام فى قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أمر بإعداد القوة ووكلها إلى الطاقة وحكم الاستطاعة، على حسب ما يقتضيه الزمان. وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم، هذا أمر الله ينبه الغافل، ويذكر الذاهل، ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

«إعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء فى مواضعها، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها، مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان، ويشيد بناء السلطة، ويحكم دعائم السطوة، ويحفظ نظام الداخل من الخلل، ويشفى نفوس الأمة من العلل. هذا مما تحكم به بداهة العقل، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض، وثبت نظام كل موجود، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها، لهذا حثت الأوامر الإلهية على العدل، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور، والحكام أولى من توجه إليهم الأوامر والنواهى فى هذا الباب، العدل هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾ وهى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير.

«من سار فى الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجده إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وتخلل العنصر الأجنبى، أو استبداد فى الرأى، واستنكاف عن المشورة، وإهمال فى إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها، ووضع الأشياء فى غير مواضعها، فيكون جور فى الحكم، واختلال فى النظام، وفى كل ذلك حيد عن سنن الله، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين.

«لو تدبرنا آيات القرآن، واعتبرنا بالحوادث التى ألمت بالممالك الإسلامية، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذى ضربه الله لنا، وأرشدنا إليه، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾.

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة، وقواد الملة المحمدية، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين، ويعلموا الجاهل، ويزعجوا نفس الذاهل، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم، وليستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا، ويحذرهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبى وأصحابه، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية، وما نزل بها من قضاء الله عندما حادت عن شرائعه، ونبذت أوامره ﴿فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

«على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾. هذه وظيفة العلماء الراسخين. وما هم بقليل بين المسلمين. ولا نظنهم يتهاونون فيما فرض الله عليهم. ووكل إلى ذمتهم. وهم أمناء الدين وحملة الشرع

ورافعو لواء الإسلام. وأوصياء الله على المؤمنين. أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بإرشادهم».

ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت فى عدد ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ (٢٢ شوال سنة ١٣٠١ النبذة الآتية بعنوان توفيق باشا).

«يتوكأ الإنجليز على توفيق باشا فى حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه، وما يكون من شر ينسبونه إليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ويردونه إلى أنفسهم. وفيما بين ذلك يبغضون إليه الولاية الإسلامية ويحببون إليه إغفال الأصول الدينية، وهو يميل معهم ويمدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية، كما يتظاهر بالتدين والمحافظة على الصلوات، فإن كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقدًا بدين الإسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع إنقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه. فإن لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقاوم الإنكليز بما فى جهده ويموت شهيدًا فى سبيل دينه ووطنه، وإلا فليس يغنى عنه من الله شيئا أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته أنه ناقم على الإنكليز كاره لوجودهم فى بلاد مصر ويود لو يخرجون كما أنبأتنا الأخبار الخصوصية من القطر المصرى.

إذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتوى فعلى المصريين أن لا يقعوا صيدًا فى يد الإنكليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا فى شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم، وإلا فما الله بغافل عنهم.

وفى هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية فى نفس العدد:

«كثيرًا ما أتينا فى جريدتنا على بيان الإنكليز فى تملك الهند وتذليلهم لأهاليه وذكرنا أن سيرة الحكومة الإنكليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبوا على

من يريدون، وقلنا إن الإنكليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ولا صرف أموال وافرة وإنما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة، يدخلون فى كل بلد أسودًا ضارية فى جلود ضأن ثاغية، يعرضون أنفسهم فى صورة خدمة صادقين وآمنة ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام، نادينا مرارًا بأن الإنكليز إذا أرادوا التدخل فى ملك للشرقيين ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير وأن وجوده فى الملك يبطئ سيرهم إلى ما يقصدون بادروا إلى التشويش عليه، فأما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويثيروا عليه أحقادها أو يغروا أحد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر. أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله إما ضعيفًا أحمق وإما صبيًّا لم يبلغ الرشد، إما من أبناء المالك أو أقاربه – ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع إصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية العمل.

إلى أن قالت:

من أدق رجال الحكومة الإنكليزية فى فن الحيلة وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعًا فى النفاق وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم فى عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم (نور ثبروك)[١]. كان هذا الرجل البارع حاكمًا فى الهند. فأذاق أهاليه مر العذاب فى كئوس المحبة والوداد. كم خرب بيوتًا وقلب عروشًا وكم خفض رفيعًا وأذل عزيزًا وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ويسكب دموع المرحمة على الهنديين ويقول إننى أول إنكليزى تهمه رفاهة أهل الهند وانى وحيد بين الإنكليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح وانى أستغفر الله إن كنت قصرت فى عمل يوصل بهم إلى الفلاح، وينادى فى الهنديين بقوله: واأسفاه إنكم إلى اليوم ما عرفتمونى ولا أحطتم بما حواه ضميرى من إرادة الخير لكم هذا هو الكاهن الحاذق فى

(١) اللورد نورثبروك Lord Northbrook حاكم الهند العام السابق وقد أوفدته إنجلترا إلى مصر فى أغسطس سنة ١٨٨٤ ومهمته درس الحالة فى مصر وتعرف «النصائح» التى ترى بذلها للحكومة المصرية لكى تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن. وقد أكرم الخديو توفيق وفادته. وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره.

وعظه «ودونه فى النفاق عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى الإسلام» إن الحكومة الإنكليزية عرفت قدره فى براعته ومعرفته بوجوه المكر وخبرته بأحوال الأمراء الشرقيين وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهـوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون – واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين. لأجل هذا قررت أن تبعثه على مصر وعزمت على إرساله إليها مفوضًا من قبلها يفعل ما يشاء، ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخذ عقولهم، فإن تسنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسهم عار الـذل ووصمة الضيم فلا يكون إلا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله يستخدمه لإدخال مصر فى ملك الحكومة الإنكليزية، يلقنه الأوامر السامية ويلهمه الإرادات السنية لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل إخوانهم وفتح البلاد الثائرة وإقرار السلطة فيها للحكومة الإنكليزية، فإن تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد إلى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدًا صغيرًا لم يبلغ الحلم واستند فى ذلك إلى الفرمانات السلطانية «يحترمونها إذا وافقت أغراضهم» وجعل نوبار باشا ديوانًا له، نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل ولا يألو جهدًا فى إبلاغه إلى نهايته، نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربى فتأخذه النعرة على جنسه، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقى من عمره ويكون فى أمان من العزل تحت ظل الحكومة الإنكليزية.

إلى أن قالت:

هذا هو نور ثبروك الذى تريد حكومة إنكلترا أن ترمى به مصر، وهذا هو الاصلاح الذى يقصد إجراءه فيها، لكن رجاءنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين وقوة إيماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكسة الحكومة الإنكليزية، كل هذا يبشرنا بخيبة هذا الغادر فى قصده. والله لا يهدى كيد الخائنين.

وفى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) كلمة جاء فيها تحت عنوان:

obeikandl.com

تعظيم توفيق باشا نور ثبروك

«ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نور ثبروك إليها. وحصلت الملاقاة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم إليه رقيمًا من اللورد (غرانفيل) يؤذن أن اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الإنكليزية فى القطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعده فى حل المشاكل الحالية خصوصًا المسائل المالية، فأظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة وأكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه.

«يظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد (نورثبروك) وإن لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد أن يعمله فى بلاده، هذا يمكن ولكن ليت شعرى ماذا يجنى هذا الخديو الشاب من مراضاة هذا المخادع وماذا يصيبه من سهام حيله؟ بيننا فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفًا من أعماله فى الهند، ونذكر الآن عملًا آخر منها:

طلب وهو حكمدار الهند أن يمكن السلطة الإنكليزية من مملكة (كابورتال) وهى مملكة واسعة تتاخم لاهور و (بتيالة) فادعى على مهرجتها (ملكها) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه فى (بكسو) حتى مات حتف أنفه وقيل بالسم، وكان هذا الملك المخلوع ابن «راندهيرسنك» ونصب بدله ولدًا صغيرًا من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الإنكليزية.

«كانت الحكومة الإنجليزية تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد، فكان أولئك المساكين يسلون أنفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها، فلما جاء اللورد (نورثبروك) حاكمًا فى الهند رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة، هذا اللورد هو الذى طلب (سميع الله خان) الدهرى ليكون معينًا له فى مصر على إرضاء المصريين بحكومة الإنكليز، وهو الذى أعطى المبالغ الوافرة للمعلم

(بالمر) لينشرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب المصرية، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة، ولكن العرب قتلوا رسوله وشنق به أشخاص فى مصر بلا جرم، هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه، صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال».

سنة الله فى الأمم

ونشرت فى عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة تحت عنوان: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

«تلك آيات الكتاب الحكيم، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون».

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد؟ هل كذب الله رسله؟ هل ودع انبياءه وقلاهم؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال؟ نعوذ بالله !!

هل أنزل الآيات البينات لغوًا وعبثًا؟ هل افترت عليه رسله كذبًا؟ هل اختلفوا عليه إفكًا؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها وإشارات لا يدركونها؟ هل دعاهم إليه بمالا يعقلون؟ نستغفر الله!

أليس قد أنزل القرآن عربيًا غير ذى عوج، وفصل فيه كل أمر، وأودعه تبيانًا لكل شىء؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، هو الصادق فى وعده ووعيده، ما اتخذ رسولاً كذابًا، ولا أتى شيئًا عبثًا، وما هدانا إلا سبيل الرشاد، ولا تبديل لآياته، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

«يقول الله ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ ويقول ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ويقول ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ ويقول ﴿ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا﴾.

هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلًا، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل، إلا من ضل عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه، هذا عهده إلى تلك الأمة المرحومة، ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة، ومهد لها سبيل ما وعدها إلى يوم القيامة، وما جعل الله لمجدها أمدًا، ولا لعزتها حدًّا.

«هذه أمة أنشأها الله عن قلة، ورفع شأنها إلى ذروة العلى، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات، وذابت للرعب منها أعشار القلوب، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير فى سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده. هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الأسلحة وعدد القتال، فأخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها، ولا دفعتها ابراج المجوس وخنادقهم، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم، ولا عاقها صعوبة المسالك، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها، ولا راعها جلالة ملوكهم، وقدم بيوتهم، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها احكام القوانين ولا تنظيم الشرائع، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة.

كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها، ويستهينون بها. وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد، وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك، ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعتها مالم تنله أمة سواها، نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجدًا فى الدنيا، وسعادة فى الآخرة.

«هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتى مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الأتلانتيكى إلى أحشاء بلاد الصين، تربة طيبة، ومنابت خصبة، وديار

رحبة، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة، وأموالها مسلوبة، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبًا شعبًا، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة، ولم يبق لها كلمة تسمع، ولا أمر يطاع، حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة، ويمسون فى كربة مدلهمة، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم.

«هذه هى الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات، استبقاء لحياتهن، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف إلى تلك الدول الأجنبية، ياللمصيبة ويا للرزية!!

«أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل.

ما سبب هذا الهبوط، وما علة هذا الانحطاط؟ هل نسىء الظن بالعهود الإلهية؟ معاذ الله! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ نعوذ بالله!

هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد ما أكده لنا؟ حاشاه سبحانه لا كان شىء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننًا متبعة ثم قال ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

«أرشدنا الله سبحانه فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهية وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة فى الرأى، والصدق فى القول، والسلامة فى الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمتهم، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشبهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم

obeikandi.com

فى حفظ السنن العادلة، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق. فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

«هكذا جعل الله بقاء الأمم وغناها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها، سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولاتتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى فى الخلق والإيجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال.

«علينا أن نرجع إلى قلوبنا، ونمتحن مداركنا، ونسبر أخلاقنا، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان؟ هل نحن نقتفى أثر السلف الصالح؟ هل غير الله مابنا قبل أن نغير مابأنفسنا، وخالف فينا حكمه، وبدل فى أمرنا سنته؟ حاشاه وتعالى عما يصفون، بل صدقنا الله وعده، حتى إذا فشلنا وتنازعنا فى الأمر وعصيناه من بعد ما أدى أسلافنا ما يحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئًا، فبدل عزنا بالذل، وسمونا بالانحطاط، وغنانا بالفقر، وسيادتنا بالعبودية.

نبذنا أوامر الله ظهريا، وتخاذلنا عن نصره، فجازانا بسوء أعمالنا، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة سوى التوبة والإنابة إليه.

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها، ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولا نرى فى أحد منا حراكًا؟

«هذا العدد الوافر، والسواد الأعظم من هذه الملة لايبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئًا من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمتنا شرقًا وغربًا، وكاد يقطع ما بيننا، لا يحن أخ لأخيه، ولا يهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب احدانا فى الآخر إلا ولا ذمة، ولا نحترم شعائر ديننا، ولا ندافع عن حوزته، ولا نعزه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

«أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة، ولا يمس سواد القلوب؟ هل يرضى الله منهم بأن يعبدوه على حرف؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن اصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا أن لايبتلى الله ما فى صدورهم، ولا يمحص ما فى قلوبهم؟ ألا يعلمون أن الله لايذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون فى سبيله بحال، ولا يشحون بنفس؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة فى سبيل الإيمان، لا بماله ولا بروحه؟

«إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، ويقولون فى إقدامهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وكيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى سبيل الله حى يرزق عند ربه؟ ممتع بالسعادة الأبدية فى نعمة من الله ورضوان؟ كيف يخاف مؤمن من غيرالله، والله يقول ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

«فلينظر كل إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين، وما جعله من خصائص الإيمان، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا.

ياسبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، واجماع الأمة سلفاً وخلفاً، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون بكل أرض، متمكنون بكل قطر، ولا تأخذهم على الدين نعرة، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شىء حتى تقيموا القرآن، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى، وتتخذوه إماماً لكم فى جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم فى العمل كما كان سلفكم الصالح.

ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرءوا منه ﴿فإذا أنزلت سورة محكمةوذكر

فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت﴾.

ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت فى وصف من لا إيمان لهم. هل يسر مؤمنًا أن يتناوله هذا الوصف المشار إليه بالآية الكريمة، أو غَرَّ كثير من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم؟ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

«أقول ولا أخشى نكيرًا: لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان، لا يراعى فى ذلك عذرًا ولا تعلة، وكل اعتذار فى العقود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله.

وها نحن نرى الإنكليز دخلوا أرض مصر وأخذوا يجولون فى أطرافها ويمهدون السبل لأمتلاكها، ومع ذلك لا نرى من أهلها إقدامًا فعليا لمصادمة القوة الإنكليزية، مع أن كل واحد منهم يزعم نفسه فى أعلى درجات الإيمان، ويزيد المتعجب عجبًا أن مصر يسكنها من المسلمين أقوام مختلفو الشعوب والأجناس، ألا يوجد «حلبى» يكون آية لما كان عليه أسلافنا ودليلا على أن تلك الروح الطيبة لم تنزع منا وأن الغيرة والحمية وشهامة الإيمان لم يزل بها مقام من نفوسنا. لا ريب عندنا أن أية حركة جزئية كانت أو كلية فى أى قطر من الأقطار التى لها تعلق بحكومة الإنكليز يوجب إحباط أعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها.

أما لو فاتت المسلمين هذه الربكة التى يعانى الإنكليز ما يعانون فيها فليستروا وجوههم بقناع الخجل ولا يغشوا أنفسهم بدعوى الإيمان واتباع القرآن فإنما هى ألفاظ على طرف اللسان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان.

«مع هذا كله نقول: إن الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضًا يزول، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة، واستلفتوهم إلى عهد الله الذى لا يخلف، لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ولرأيت نورًا يبهر الأبصار، وأعمالاً

تخار فيها الأفكار، وأن الحركة التى نحسها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الألام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين، ويوجد بها بين جميع الموحدين، ونرجو أن يكون العمل قريبا، فإن فعل المسلمون واجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم، صحت لهم الأوبة، ونصحت منهم التوبة، وعفا الله عنهم، والله ذو فضل على المؤمنين، فعلى العلماء أن يسارعوا إلى هذا الخير، وهو الخير كله: جمع كلمةالمسلمين، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدًا﴾.

الوهم

من مقالة نشرت فى العدد نفسه:

«ألا قاتل الله الوهم. الوهم طورًا يكون مرآة المزعجات ومجلى المفزعات، وطورًا يكون ممثلًا للمسرات حاكيًا للمنعشات، وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة، لكن له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة، فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير.

الوهم يمثل الضعيف قويًا والقريب بعيدًا والمأمن مخافة والموئل مهلكًا، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يمثل الموجود معدومًا والمعدوم موجودًا، الوهم فى كون غير موجود وعالم غير مشهود يخبط فيه خبط المصروع، لا يدرى ماذا أدركه وماذا تركه، الوهم روح خبيث يلابس النفس الإنسانية وهى فى ظلال الجهل، إذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الإرادات فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة، فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون إلى سبيل ولايستقيمون على طريق.

«كان الإنكليز أمة مجتمعة القوى مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة، وكل بديع من الاختراع سحرًا وكرامة، فانتهز الإنكليز تلك

الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الإنكليز من حبائل الحيلة والمكر، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما فى أيديهم بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم وأجلوهم عن أملاكهم، فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت، وأثرت بما نهبت، وترفهت بما ملكت، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطار متوزعة فيها، فلا ترى فى كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العدد والعدد، وهى فى جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودًا ولا دفاعًا، وإن أخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة، وقد ظهر هذا الأمر على أنفس الأمة الإنكليزية، فهى دائمًا فى رجفة على أملاكها فى خيفة من تمزقها وضياعها، تتوجس من كل حادثة فى العالم وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الإنكليز المتوزعة فى الانحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء.

«ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيًا على الشرقيين محجوبًا عنهم بحجاب الوهم.

يمثل الوهم لكل شرقى أن الإنكليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم، فمثل الشرقيين مع الإنكليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعًا ضاريًا ومفترسًا قويًا، فينكب عن الطريق وهمًا وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه، يرتعد ويسقط ويموت خوفًا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه، بل لا نخطىء إنْ قلنا إن هذا الوهم كان متسلطًا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين، فالأوروبيون كانوا ينظرون إلى انكلترا فى أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها فى جزائر بريطانيا، وكانت حكومة إنكلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية، يحس الإنكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائمًا فى ستره ولا ستار اكثف

من الوهم، ولهذا نـراهم فى كل حـادثة يجلبـون ويصيحون ويـزأرون ليثيروا بـالضوضـاء هواجس الأوهـام فتحـول أنـظار النـاظـرين، وتغشى بصـائـر المستبصرين، فتحول دون استطلاع الحقيقة، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الإنكليز.

«ذهب الإنكليز إلى الهند فى قوى مجتمعة، وتسابقوا مع الفرنساويين وهولاندا والبرتغال فى مدن الأراضى الهندية الواسعة، فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد، أو طيب قلوبهم، فمالت النفوس إلى الإنكليز اغترارًا وتغلبوا على تلك البلاد، واستقلوا بأمرها شيئًا فشيئًا وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضائق من الأرض لا تذكر، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم إننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندا والبرتغال) فـإنها تريـد التسلط على ممالكهم، أما نحن (الإنكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم.

ثم إنا نرى للإنكليز الآن فى الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان[١] سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونًا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الإنكليزية طالب للتخلص منها بفضل أية سلطة سواها ظالمة كانت أو عادلة، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الإنكليز ولا تصل إلى ما وصل إليه الإنكليز فى الكبرياء والجبروت، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة، لا يوجد فيهم قوة لقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندى إنكليزى، مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندى، هذا فضلًا عمن يمكنه حمل السلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الإنكليزية وزال استقلالها بالمرة، فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضه

---

(١) بورما.

قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحة اعتبار وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا إلى ضعف الإنكليز فى الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهما الأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة.

«يوجد فى الدول الأوروبية من يهاب دولة الإنكليز اعتبارًا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقترب منها، ولم يلتفت إلى أن جسم الإنكليز قد مد فى الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع)، تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة، ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه، يترقبون فى كل آن زحفًا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين.

لو التفتت تلك الدولة التى تهاب إنكلترا إلى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ومشورة، فقد وصل الأمر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر لولا حجاب الوهم، قاتل الله الوهم».

التنبيه إلى مقاصد الإنكليز

كتبت فى آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١) مقالة بعنوان (عماء بعض الناس فى مصر أو تعاميهم عن مقاصد الإنجليز) وجهت فيها الخطاب إلى بعض من خدعوا فى وعودهم. قالت ضمن ما قالت:

«ظهرت مقاصد الإنجليز وانكشفت مضمراتهم، وإن كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكودة الحظ (لا نريد نوبار باشا فإنه ضارب فى طريقه ذاهب فى

مقاصده) يتزلف للإنجليز بكل ما يمكنه لينال بهم ما أشرنا إليه مرارًا، تسول لهم أنفسهم إما جهلاً وإما طمعًا، أن يميلوا مع ريح الحكومة الإنجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية إلا خيرا، فإذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الإنجليزية عنها كما جاءت إليها ورجعت إلى بلادهم.

«والعجب من هؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورث بروك يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى إليه العمد والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طورًا بالسر وآخر بالعلن، ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد، أما كان يكفى هذا السير لدرك الحقيقة؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيل لهم ما يظنون؟ ألم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورث بورك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر[١] ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله: ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا (نحن الإنكليز أن نديم الإقامة فى البلاد؟ فلو لم يكن لدولة الإنكليز عزم على تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية يبتدر شيخًا من أجل المشايخ وأعلاهم مقامًا فى القطر المصرى بهذا السؤال مع أن أقل ما فيه إثارة الظنون وإحداث الريب؟!.

أجابه حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الإنكليز فى معاهد مصر، فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله إنا لا نريد البقاء، ولكن كان استدراكه مناقضًا لما دل عليه أول سؤاله وما الإنكار إلا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلاً عن الراشدين، يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكنه مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير إلى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى إذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر.

«أما آن لهؤلاء المخدوعين أن يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد، أى إصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية وإلغاء كل

(١) هو الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية صاحب الفتاوى المهدية.

obeikandl.com

ما يسمى جندًا مصريًا ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية؟ إن اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضباطة. ما هذا الاهتمام إن لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصر؟ هذا سبيل سلكه الإنكليز فى جميع فتوحاتهم كما نبهنا عليه مرارًا وأن هذا الكيس الداهية الإنكليزى لا يحيد عنه بعد ما سلكه أسلافه قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهند وجنوا ثماره، يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وإبدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين بأقوام من الجيوش الإنكليزية البريطانية أو الهندية تعللاً بأخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدمة النظامية، وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة، وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الإنكليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية».

احتجاب العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢٦ ذى الحجة لسنة ١٣٠١) فكان هذا العدد آخر ما صدر فيها، وكان أول عدد قد ظهر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤. فكأنها استمرت فى الظهور سبعة أشهر.

ويبدو أن تهاون الشرقيين فى الإقبال عليها وإمدادها بالعون والتأييد كان السبب الأول لاحتجابها، وكان لمحاربة الإنجليز أثر كبير فى احتجابها، فقد منعت دخولها إلى مصر والهند كما سلف القول، فالأمم الشرقية والسياسة البريطانية يتحملان معا تبعة وقف هذه الصحيفة التى كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين ونبهت الغافلين، ومع قصر المدة التى عاشتها، فإنها عملت فى بعث الشرق أكثر مما عملت صحف أخرى فى عدة سنين، ولقد ظل أثرها بعد احتجابها باقيًا مدويا فى الأذهان كلما توالت الأيام والأعوام، ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الإمام الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الصحيفة من المكانة الرفيعة والأثر الخالد فى نفوس الشرقيين جميعًا.

انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى بيروت ثم إلى مصر سنة ١٨٨٩ (١٣٠٦هـ)، وانقطع عن الكفاح السياسى وانصرف إلى الاصلاح الدينى والاجتماعى، أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسى إذ أنه يراه الأساس لنهضة الشرق.

ويبدو أن اختلاف الحكيمين فى هذا الصدد قد بدأ فى باريس فقد أشار الأستاذ الإمام على جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرهما، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية، ومن يتوسمان فيهم الخير، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه، ويعدانهم للزعامة والإصلاح، ولكن جمال الدين لم يقبل هذا الرأى وعده تراجعًا عن الكفاح السياسى وتثبيطًا للعزيمة، ورجح رأى جمال الدين مؤقتًا فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى، وبدأ من أسلوب الجريدة أن الأستاذ الإمام اقتنع برأى أستاذه، على أنه حين عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩ رجع إلى فكرته التى أبداها فى باريس وانقطع إلى الإصلاح الاجتماعى والدينى، وبلغ فيه الذروة، ولقد قلت فى هذا الصدد سنة ١٩٢٧ فى كتابى عن (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) «ونقطة الضعف فى شخصية (الأستاذ الإمام) هى تخلفه عن الكفاح السياسى، واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى، ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته إلى مصر سنة ١٨٨٩، فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن، وإنك لتلمح تراخى الصلات بينهما – حتى الصلات الشخصية – منذ أن عاد إلى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الإمام[١] فإنك

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام للسيد محمد رشيد رضا الجزء الثانى.

لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها إلى السيد فى محنته ومنفاه، بل إن جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجدالأستاذ الإمام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده فى (العروة الوثقى). وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال»[١].

جمال الدين ورينان

جرت لجمال الدين فى باريس أبحاث مع الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان Irnest Renane فى العلم والإسلام، فقد ألقى رينان فى (السوربون) محاضرة فى هذا الموضوع قال فيها: إن إنتاج الأمم غير العربيـة أكثر من إنتـاج الأمم العربية، وإن التمدن أكثره من إنتاج الفرس وغيرهم دون العرب، وزعم أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة، والبحث الحر، وإن من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه، أو كان فى حماية خليفة أو أمير من المؤمنين، وقد نشرت هذه المحاضرة فى جريدة الديبا الفرنسية Journal des-Dêbats وكان ممن رد عليه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك.

ورد جمال الدين على هذه المحاضرة، ونشر رده فى جريدة الديبا، وخلاصة رده : أن ما ذكره رينان عن الإسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه، بل من عمل بعض من اعتنقوا الإسلام فى بعض العهود، وإن الاضطهاد الذى قال عنه رينان قد وقع مثله فى الأديان الأخرى، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن، وأما عن قوله إن الاسلام لا يشجع العلم، فان الكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الإسلام وأخذ يسير فى التقدم العلمى والفكرى ويسير فى هذا المجال بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، فتقدمت العلوم تقدمًا مدهشًا بين العرب وفى كل البلاد التى انضمت لسيادتهم.

وقد أكبر رينان هذا الرد، والتقى به وتباحث وإياه فى الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وسعة علمه وقوة حجته وقال عنه «كنت أتمثل أمامى عندما كنت

(١) الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى ص ٥٤٢ الطبعة الأولى.

أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد، أو واحدًا من أساطين الحكمة الشرقيين» وقال إن جمال الدين الأفغانى خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس.

obeikandl.com